شارق

محمد علوان

يقول الرواي: نَبَتَ «شارقٌ» من أرضٍ لا تواري فِتْنَتَها إلاّ عن الكارهين، انشقّ مثلما الصرخةُ. تَكَوَّنَ حتى كاد النخلُ أن يجنّ به. ملأ الصحراءَ حتى ضاق البحر بهِ، فإذا بالموج الذي يلطم الشطآنَ لم يكن له هم إلاّ أن ينزاح قيلاً داخل الصحراء. أطلق البحر في هدأة الليل كائنات يخلفها الموج بعد أن تقذف الشمس ببدنها المنهك نحو البحر.

بلا وعي تحرس تلك الكائناتُ الشطآن شبراً شبراً، وكأنّها تقيس مملكة البحر. الموج لا يني ولا يتوب عن فعلته الأبدية، والشاطئ ملقى على قفاه، والموج يمسح بمائه المتدفّق المتواتر جسد الشاطئ حتى يصل إلى جذور النخل، ثم ما يلبث الماء أن يسحب معه حبّات الرمل حبّةً حبّة، يعرّي الشاطئ، يغريه بالبحر.

نَبَتَ شارق، والليل يمطر على الصحراء حتى أثخنها بالماء. لم يكن يشبه صحبته، ولم تكن صحبته تحبّه. قيل إنّ أمّه حين داهمها المخاض لم تسمعه يصرخ كبقيّة الأطفال مع أن يمّ الرمال قادرٌ على ابتلاع صرختَه!

يقول الراوي: – والعهدة عليه –: إنه في تلك اللحظة كان قادراً على ابتلاع صرخته (بعد فترة من الصمت – أضاف الراوي) المدوّية. لم يلبث شارق عمراً طويلاً رغم أنّ الرواة غير الثقات أكّدوا في جلسة سَمَرٍ يحتسون فيها القهوة المرّة وأحاديثَ فاقعة العذوبة أنه ربما عاش ألف سنة بالتمام والكمال، لم تسقط له سنّ، ولم يخالط شعرَه البياضُ، ولم تلوّحه شمسُ القيظ. هزّوا رؤوسهم بشكل جماعي وقالوا بصوت واحد: كان شارقٌ مختلفاً.

دارت القهوة للمرّة الثانية، كان الساقي نحيلاً يتّجه إلى الصمت، إن تحدّث أصغوا إليه دون استثناء.

لكن أرأيت كيف يتحدّث الإنسانُ من وراء قلبه؟ ذلك النحيل تسلّل إليهم عبر قهوته المرّة دون عناء، أصابعه النحيلة تمتدّ إلى أصابعهم المتورّمة بدمٍ فاسد. تحرّك الدم قليلاً فإذا بالأحاديث تنتشر قليلاً وقليلاً. رجل وسيم جداً، مليء بشامةٍ على يسار الناظر إليه، إلا أنه متأكّد تمام التأكيد أن الشامة بالنسبة لخارطة الوجه تقع إلى اليمين. ضاق ذرعاً بالذي أمامه وصاح به بقليل من التهذيب: إخَالُ أنك تعاني من غشاوة في العين.

صرخ رجل قصير القامة، كان أطولَ ما به تلك الأسنانُ العجيبةُ في مقدّمة فمه: هل تقصد العينَ اليمنى أم اليسرى؟

لم يضحك لحظتَها أحدٌ، لكنّ القصير عمد إلى فمه وجذب أسنانه من مواقعها، أصبح يسمع جيّداً.

قال الرجل الوسيم بعد أن هدأت النفوس: إنّ شارقاً لم يعمّر أكثر من تسعين سنة. كان غريباً عن أهل هذه القرية، رغب أن يسير بالقريّة وأهلها إلى البحر، حين سأله كبار السن: كيف يتاح لنا هذا الجنون؟ قال في حينها وبلا تردّد: نحفر خندقاً حتى يصل البحر لنا. ضحك الجميع، وقف أحدهم، نظر إلى مختلف الاتجاهات، سأله شارق: ماذا تفعل أيّها المخبول؟ أجابه وهو ينظر إلى البعيد: أحدّد اتّجاه البحر وأقْصَرَ الطرق إليه. صاح به: اجلسْ أيها الجمل الأجرب، البحرُ في كل اتجاه.

لم يتوقّف الرجلُ الوسيم المرصّعُ بشامةٍ عن الحديث.

انبرى عاقلهم، طلب من صاحب الأصابع النحيلة القليلَ من القهوة، بدا للجميع أنه أخذ أكثر من قسمته، لكن لم يعترض أحدٌ منهم...

قال له: يا بني ما هو البحر؟ هل رأيته؟ صمت شارق وَوَهجُ النار يلفحُ الوجوه، أخفى الكثير من التقاسيم إلا أنّه فضح القليلَ من الحسرات.

يقول الراوي: - والعهدة عليه - إنّ كهول القرية وشبّانها ظلوا يتحدّثون عن «شارق» قرابة علم كامل، وعلى مدار جلسة واحدة، وأن صاحب الأصابع الناحلة ظل ليسقيهم القهوة المرّة.

وغريب الأمر أن شارقاً كان معهم يشرب القهوة، له أصابع ناحلة، وهو رجل يمتلك وسامة ظاهرة، مليء بشامة على يسار الناظر إليه... وأنه ظل يحلف أغلظ الأيمان أن الشامّة فوق خدّه الأيمن وأنّه رجل قصير القامة بأسنانٍ عجيبة.

الرياض

نصوص

أصداء وتشييع

هدى الدغفق

أصداء

- ١ -

أحياناً.. أبكي هذا القمر المتسلّق غرفتنا.
ما ذنبُ عقاربِهِ لتضيء!؟
أُسْلِمُه الوحدة كلّ مساء
بينا يُسلّمني عينيه العاشقتين.

- ٢ -

لشرخ هذا الجدار صدرٌ.. أوسع من ضيق صدري.

- ٣ -

شابيكُ بيتي.. كخلايا النّحل.
أقطر بالعسل لذلك.

تشييع

كنتِ أيتها الساعة.. صاحبتي الحنون.
تهدهدين كرمة أيامي.. بذكرياتك المقبلة.
فتزهر عناقيدي
ما زال صوتي يُنصت إلى لحظاتك.
وما زلتِ - يا صاحبتي اليتيمة - تنصتين دائماً..
أُسوّي قصيدتي.
قبلها.. كلماتي القلقة تفور في مخيّلتي.
تخفضين جناحيكِ قليلاً
وإليكِ تطير مذهّبة المعاني.
ما أفظع أن أودّعك!
لماذا تعثرت ساقك عن المنضدة؟!
سأظل أعاتبك!